آراء فى تاريخ دولة المماليك البحرية

بقلم

الدكتور على ابراهيم حسن

مدرس التاريخ الإسلامى بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

[بحث مستخرج من مجلة كلية الآداب ، المجلد السابع ، سنة ١٩٤٤]

مطبعة الاعتماد بشارع حسن الأكبر بمصر . لصاحبها محمود الخضرى

إهـــــــداء٢٠٠٨

الأستاذة / ليلى على إبراهيم
جمهورية مصر العربية

آراء فى تاريخ دولة المماليك البحرية

بقلم

علی ابراهيم حسن

تستلزم دراسة تاريخ دولة المماليك من الوجهة السياسية ومن ناحية النظم الرجوع إلى المصادر التاريخية القديمة والمراجع الأوروبية الحديثة من كتب وبحوث ومقالات، كما تقتضى استيعاب طائفة من المخطوطات التى ترجع إلى عصر المماليك ومنها :

كتاب «مُفَرِّج الكروب فى تاريخ بنى أيوب» لابن واصل[١] الذى توفى سنة ٦٩٧ هـ. وكان معاصراً لأواخر الدولة الأيوبية وأوائل دولة المماليك.

وكتاب «زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة» لبيبرس الدوادار[٢] الذى توفى سنة ٧٢٥ هـ وهو فى أحد عشر مجلداً فُقد بعضها للأسف. وأهم أجزائه الجزء التاسع، وفيه تناول مؤلفه الكلام على عهد السلطان الظاهر بيبرس وينتهى بأوائل سلطنة الناصر محمد الثالثة أى من سنة ٦٥٨ هـ الى سنة ٧٠٩ هـ.

وكتاب «السلوك لمعرفة دول الملوك» للمقريزى الذى توفى سنة ٨٤٥ هـ[٣].

ومن هـذه المخطوطات كتاب «المقصد الرفيع المنشا الهادى لديوان الانشا» للخالدى[٤] الذى توفى سنة ٩٣٧ هـ ويشتمل على معلومات قيمة فى نظم الحكم فى الدول الاسلامية بوجه عام وفى مصر المملوكية بوجه خاص.

وقد أورد ابن حجر العسقلانى الذى توفى سنة ٨٥٣ هـ فى كتابه المخطوط «رفع

---

(١) جزءان مخطوطان بدار الكتب المصرية رقم ٥٣١٩ تاريخ.

(٢) مخطوط بمكتبة جامعة فؤاد الأول رقم ٢٤٠٢٨.

(٣) نشر الدكتور محمد مصطفى زيادة الجزءان الأول والثانى من هـذا المخطوط حتى سنة ٧٤١ هـ سنة وفاة السلطان الناصر محمد.

(٤) مخطوط بمكتبة جامعة فؤاد الأول رقم ٢٤٠٤٥

الإصر (أى الذنب) عن قضاة مصر »[١] تراجم دقيقة لبعض القضاة كشفت عن كثير من نواحى النظام القضائى فى سلطنة المماليك .

أما عن النظم الحربية فى ذلك العصر فإن الباحث يعتمد على مصادر خطية هامة من بينها : كتاب « السؤل والأمنية فى تعليم الفروسية » لمؤلفه بكتوت الرماح[٢] الذى توفى سنة ٧١١ هـ . وكتاب « غنية الطلاب فى معرفة الرمى والنشاب » تأليف طيبغا الأشرفى البلقميشى اليونانى[٣] الذى توفى سنة ٧٧٠ هـ . وكتاب « الفروسية برسم الجهاد » تأليف لاچين الحسامى الطرابلسى[٤] المتوفى سنة ٧٨٠ هـ .

وعن العلاقات الخارجية يجدر بالباحث أن يستفيد من كتاب Egypt and Aragon[٥] الذى يشتمل على طائفة من الوثائق العربية نشرها الدكتور عزيز سوريال عطية وأمكن بها إلقاء ضوء على جانب من العلاقات بين مصر وأرغونة فى عصر الناصر محمد .

على أن البحث فى تاريخ ذلك العصر لا يقف عند حد الاقتصار على المصادر التاريخية التى أشرت الى بعضها بل يتعداه إلى غيرها من المؤلفات التى وضعت فى الفنون والتى تعد مصادر مادية للحقائق التاريخية . من ذلك « جامع الكتابات التاريخية » المعروف باسم Corpus Inscriptionum Arabicarum لمؤلفه فان برشم Van Berchem[٦] . وفيه وصف المؤلف العمائر الاسلامية وما عليها من الكتابات وتضافر تلاميذه

---

(١) مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٢١١٥ .

(٢) مخطوط بالمتحف البريطانى رقم ٣٦٣١ .

(٣) مخطوط بكمبردج رقم ١٧٨ — ٢٤٠ .

(٤) مخطوط بمكتبة برلين رقم ٥٨٨ .

(٥) Atiya : Egypt and Aragon (Leipzig, 1938) : Embassies and Diplomatic Correspondence between 1300 ond 1330 R. D,

(٦) Van Berchem : Matériaux pour un Corpus Inscriptionum Arabicarum (le Caire, 1954) — (Mem, I. F. A. Caire.)

وأعوانه على تحقيق رغبته فى جمع كل النصوص العربية المكتوبة على العمائر والتحف فى مختلف أنحاء العالم الاسلامى .

أضف الى ذلك ما كتب عن المسكوكات الإسلامية فى عصر المماليك ، وما نشره أساتذة الآثار عن الفنون الاسلامية فى مصر ، ومن أشهرها تلك التى وضعها الأساتذة كرزويل [١] وزكى محمد حسن [٢] . وكذا ما نشر عن الرنوك أى الأشعرة المملوكية [٣] . وعن طريق هذه المصادر المادية أمكن الكشف عن كثير من الحقائق التاريخية التى بينت لنا العلاقات الوثيقة بين الدراسات التاريخية والعلوم المساعدة كالكتابات والنقوش التاريخية والمسكوكات والتحف الفنية وما إلى ذلك .

وهناك مصادر أخرى مختلفة بين عربية وأفرنجية تمدنا بمعلومات قيمة عن هذا العصر .

* * *

يبدأ تاريخ المماليك السياسى فى مصر منذ سنة ٦٤٨ هـ (١٢٥٠ م) باعتلاء السلطان أيبك أول سلاطين المماليك فى مصر العرش . استمر أيبك فى السلطنة حتى سنة ٦٥٥ هـ وقضى فترة حكمه فى القضاء على المناوئين لحكم المماليك فى مصر . ولم يستمر ابنه على فى السلطنة طويلا فقد اغتصبها منه أتابكه سيف الدين قُطُز الذى امتاز حكمه بهزيمته للتتار

(١) انظر : Creswell, K. R. C. :
Early Muslim Architecture, Oxford 1923.
A Brief chronology of Muhammadan Monuments of Egypt (B. I. F. R. O. T. XVI)
The Foundation of Cairo (Bulletin of The Faculty of Arts, University of Egypt, Vol. 1 part 2, Dec. 1933).

(٢) زكى محمد حسن :
الفن الاسلامى فى مصر (من مطبوعات دار الآثار العربية) .
التصوير فى الاسلام (من مطبوعات لجنة التأليف والترجمة والنشر) .
فى مصر الاسلامية (هدية المقتطف سنة ١٩٣٧) .
كنوز الفاطميين (مطبوعات دار الآثار العربية سنة ١٩٣٧) .

(٣) انظر كتاب Saracenic Heraldry لمؤلفه Mayer أستاذ علم الآثار الاسلامية فى الجامعة العبرية بفلسطين ، كتبه مؤلفه فى علم الرنوك ومعناها ورسومها . وراجع ما كتبه الدكتور زكى حسن عن الرنوك فى تعليقاته على كتاب التصوير عند العرب لأحمد تيمور باشا

فى عين جالوت وبَيْسان فى الشام . ولكنه قتل وهو فى طريقه الى مصر وتولى قاتله الامير ركن الدين بيبرس العرش سنة ٦٥٨ ﻫ (١٢٦٠ م) . وفى عهده نقلت الخلافة العباسية الى القاهرة سنة ٦٥٩ ﻫ توطيداً لسلطان المماليك فى مصر ، كما تمكن بيبرس سنة ٦٦٢ ﻫ من استحداث نظام ولاية العهد لأول مرة فى تاريخ المماليك وورث العرش على هذا الأساس لابنيه السعيد بَرَكة خان ثم العادل بدر الدين سلامش اللذين استخف بهما أمراء مصر الأقوياء حتى تمكن الأمير سيف الدين قلاوون سنة ٦٧٩ﻫ (١٢٧٩م) من أن يغتصب العرش من سُلامِش بن بيبرس ويصل إلى عرش السلطنة ويؤسس بيت قلاوون الوراثى . وظلت السلطنة فى بيته يتوارثها أبناؤه وأحفاده حتى نهاية دولة المماليك البحرية (سنة ٧٨٤ ﻫ) ، وخلفه ابنه الأشرف خليل الذى لعب معه أمراء مصر الدور الذى سبق أن لعبه أبوه قلاوون مع سلامِش والذى لعبه بيبرس مع قُطُز ، وانتهى الأمر بقتله سنة ٦٩٣ ﻫ ، وانتقل الملك من بعده إلى أخيه الناصر محمد (٦٩٣ — ٧٤١ ﻫ = ١٢٩٣ — ١٣٤٠ م) .

اعتلى الناصر محمد بن قلاوون عرش مصر ثلاث مرات : استمرت الاولى عاماً واحداً أى من سنة ٦٩٣ ﻫ إلى سنة ٦٩٤ ﻫ ثم اغتصب الملك منه العادل زين الدين كتبغا فالمنصور حسام الدين لاجين . واستمرت فترة الاغتصاب هذه أربع سنوات أى من سنة ٦٩٤ ﻫ الى سنة ٦٩٨ ﻫ ، ظل الناصر خلال سنتين منها أشبه بسجين فى القلعة حتى أرسله لاجين فى سنة ٦٩٦ ﻫ إلى الكَرك . ولكن كل ما تخلّل عهد كل من كتبغا ولاجين من حوادث واضطرابات وفتن وما انتاب البلاد من مظاهر الضعف والانحلال فى أثناء حكمهما كان من العوامل التى هيأت للناصر سبيل العودة الى العرش ، ومن ثم تبتدىء مرحلة سلطنته الثانية وتمتد من سنة ٦٩٨ ﻫ الى سنة ٧٠٨ ﻫ .

وأظهر ما نلاحظه عن سلطنة الناصر الثانية تضييق الخناق عليه واستخفاف الأمراء بأمره وعدم اكتراثهم لشأنه حتى اضطر الى الرحيل الى الكرك مرة ثانية وأقام فى جوٍّ بعيد عن المؤامرات والدسائس التى كان يحيكها حوله خصومه من أمراء مصر الطامحين إلى النفوذ والسلطان ، غير أن رحيله عن حاضرة ملكه سنة ٧٠٨ﻫ مكّن بيبرس الجاشنكير من اغتصاب العرش لنفسه .

ولـكن هذا لم يصرف الناس عن الناصر أو يضعف من اعتقادهم فى أنه يستطيع وحده أن ينقذ مصر من الفوضى التى سادتها أثناء حكم بيبرس . فلا عجب إذا لم تنقطع المراسلات بين أمراء مصر من ناحية وبين الناصر محمد من ناحية أخرى يرجونه فيها العودة إلى بلاده ، فتهيأت أسباب عودته إلى مصر وعاد اليها ليبدأ سلطنته الثالثة فى سنة ٧٠٩ هـ وظل فيها حتى توفى سنة ٧٤١ هـ[١].

استمرت سلطنة الناصر محمد الثالثة اثنتين وثلاثين سنة متصلة ، انفرد فيها وحده بحكم مصر وتمكن من القضاء على الذين اغتصبوا عرشه ، وعلى الذين أقاموا الفتن وأثاروا الدسائس حوله . وفى سلطنته الثالثة ازداد تعلق الشعب بالناصر لمـــا أتاه من جليل الأعمال وما تكشف لشعبه فيه من جميل الخصال . وبذلك تعتبر هذه الفترة فى الواقع عهد سلطنة الناصر الحقيقية لأنه كان قبل ذلك آلة فى أيدى الأمراء الأقوياء يجلسونه على العرش أو يصرفونه كما شاءت أهواؤهم .

يعتبر عصر الناصر محمد بن قلاوون أزهى عصور دولة المماليك البحرية ، لأن فيـه توطدت دعائم هذه الدولة ، وبدأت أساليب الحكم والإدارة فى الاستقرار بفضل التجارب التى قامت بها حكومة الناصر ، كما ازدهرت الفنون حتى عدّ المؤرخون عصره أزهى عصور الفن فى دولة المماليك خاصة وفى تاريخ مصر الإسلامية عامة . وامتد هذا العصر فترة طويلة بلغت ثمانية وأربعين عاماً ، وهـذا يجعل الباحث فيه يلم بكثير من أحوال مصر السياسية والاقتصادية والاجتماعية فى عصر دولة المماليك البحرية .

---

(١) المراجع الثانوية التى تعرضت لتاريخ المماليك السياسى أربعة وهى .

1. Weil. Geschichte der Abbasiden Chalifats in Egypt. (Stuttgart, 1860—1862) Vol. I pp 191—412

2. S. Lane — Poole : Egypt in the Middle Ages, pp. 242—323.

3. Ency. Isl. art. Mamluk.

4. Wiet : Histoire de la Nation Egyptienne, T. 4 (L' Egypte Arabe) pp. 456—498.

ويعد الأول أوفى هذه المراجع الأربعة بالرغم من تقادم عهـده . وقد اعتمد مؤلفه على المخطوطات المحفوظة ببعض المكاتب الأوربية إذ أنه وقت تحرير الكتاب لم تكن المصادر العربية الأصلية قد نشرت بعد على أنه يجب ألا نبالغ فى الاعتماد على تلك المراجع الثانوية فى بحث مثل هذا الموضوع . ولذا توجهنا إلى الأصول العربية المنشورة والمخطوطة التى سبق الاشارة إلى بعضها .

وبوفاة الناصر فى سنة ٧٤١ هـ انطلقت ألسنة الشعراء لتأبينه والاشادة بذكره، وتقدير شخصيته وتعداد مناقبه، ولا غرو فقد كان الناصر العامل الأول فى وضع أسس السياسة العامة للدولة المملوكية، والمنفذ الأكبر لقواعدها، والمثل الأعلى للسياسى المحنك إذ كان شديد البأس سديد الرأى يتولى أمور الدولة بنفسه، مطلعاً على أحوال مملكته محبوباً من رعيته، مهيباً فى أمراء دولته.

أطراه أبو المحاسن بعبارات مملوءة بالإعجاب والتقدير لمواهبه وأخلاقه ووصف ما يتحلى به من حزم وشجاعة ودهاء وكياسة فقال إنه «أطول الملوك فى الحكم زماناً[1] وأعظمهم مهابة وأحسنهم سياسة وأكثرهم دهاء وأجودهم تدبيرا وأقواهم بطشاً وشجاعة. مرت به التجارب وقاسى الخطوب وباشر الحروب وتقلـّب مع الدهر ألوانا. ونشأ فى الملك والرياسة، وله فى ذلك الفخر والسعادة، خليقاً بالملك والسلطنة. فهو سلطان وابن سلطان ووالد ثمانية سلاطين من صلبه والملك فى ذريته وأحفاده وعقبه ومماليكه ومماليك ومماليكه إلى أن تنقرض الدولة التركية فهو أجل ملوك الترك وأعظمهم بلا مدافع»[2].

ووصفه ابن إياس فقال:

الناصر السلطان قد خضعت له ... كل الملوك مشارقا ومغاربا
ملك يرى تعب المكارم راحة ... ويعد راحات الفراغ متاعبا
ترجى مكارمه ويخشى بطشه ... مثل الزمان مسالما ومحاربا
فإذا سطا ملأ القلوب مهابة ... وإذا سخا ملأ العيون مواهبا[3]

واستقر على عرش مصر بعد الناصر أولاده وأحفاده يتعاقبونه واحداً بعد الآخر مدة ثلاث وأربعين سنة (٧٤١ — ٧٨٤ هـ = ١٣٤٠ — ١٣٨٢ م). وبلغ عدد هؤلاء السلاطين الذين حكموا مصر من بيت الناصر: ثمانية أولاد وأربعة أحفاد، بلغ متوسط حكم السلطان الواحد منهم ثلاث سنوات ونصف سنة. ويتميز عهدهم بصغر سن السلطان، وقِصَر مدة حكمه لسهولة خلعه على يد أمراء مصر ولظهور نفوذ

(١) يقصد بالطبع أن مدة حكمه هى أطول مدة جلس فيها سلطان من سلاطين دولة المماليك على عرش مصر.

(٢) النجوم الزاهرة (مخطوط) جـ ٤ القسم الثانى ص ٢٧٤.

(٣) بدائع الزهور جـ ١ ص ١٧٣.

الأتابكة ظهورا واضحا واشتداد التنافس بين الأمراء على النفوذ وجعلهم السلطان ألعوبة فى أيديهم يعزلونه أو يبقونه حسب مشيئتهم . ولذلك ضعفت الدولة المملوكية بعد وفاة السلطان الناصر واضطربت أحوالها وكثرت الفتن والقلاقل فى جميع أرجائها .

وفى الواقع لم تكن هناك غير نهاية واحدة لهذه المجموعة من الدُّمى التى تبوأت عرش مصر منذ وفاة الناصر ، وقضت على السلطة بصفة إسمية . وكان من الطبيعى أن يغتصب العرش أمير قوى كما فعل بيبرس وقلاوون من قبل . وكان هذا الأمير تلك المرة هو برقوق الذى تغلّب أولاً على منافسيه من أُمراء العصر واحدًا بعد واحد ، ثم خلع آخر سلاطين بنى قلاوون سنة ٧٨٤ هـ (١٣٨٣ م) وأسس دولة المماليك البرجية ، وبذلك زال الملك عن بيت قلاوون بعد أن حكم مصر مائة وثلاث سنين ، قبض فيها قلاوون وأبناه الأشرف خليل والناصر محمد على زمام الأمور بأنفسهم ، بينما حكم الباقون من ذرية قلاوون حكما صورياً ، ولم يكن كل منهم أكثر من ألعوبة فى أيدى الأمراء .

* * *

والآن نذكر بعض النتائج التى أمكن الوصول اليها من دراسة عصر المماليك :

لتوضيح طرق اعتلاء السلاطين عرش السلطنة المملوكية ينبغى تحليل مبدأ الوراثة فى العصر المملوكى ، وأثر الامراء فى سير الحوادث الجارية إذ ذاك ، ومركز الخليفة العباسى فى سلطنة المماليك :

١ — كان مبدأ الوراثة غير معترف به طوال حكم الدولة المملوكية : لأن المماليك اعتقدوا أن المُلك يجب أن يؤول إلى أقوى الأمراء وأكثرهم شجاعة فى الحروب ، واعتبروا السلطان واحداً منهم يختارونه من بينهم لأنه لا يمتاز عنهم إلا بما وهبه الله من قوة وبسالة ودهاء وسعة حيلة . وكان استقرار السلطان على العرش يتوقف على كثرة أتباعه وضخامة ثروته ومبلغ رضاء الأمراء عنه . واتخذوا من صغر سن بعض السلاطين فرصة سانحة لتحقيق مطامعهم فى الوصول إلى العرش غير

مكترثين لمبدأ الوراثة [١] .

وهذا يعلل لنا سبب وقوع حوادث الاغتصاب فى سلطنتى الناصر محمد الأولى والثانية . فإن حوادث عصر الناصر كانت تدور حول اغتصاب عرشه ومع ذلك يمكننا أن نطلق على ذلك العصر عصر الوراثة فقد تخللته فترات اغتصاب لا تكاد تظهر حتى تختفى ثم يعود صاحب العرش ليجلس على عرش أبيه . وليس غريباً أن يحدث ذلك الاغتصاب فى بيت قلاوون ، لأن قلاوون نفسه مؤسس هذا البيت اغتصب العرش من العادل بدر الدين سُلامِش بن الظاهر بيبرس سنة ٦٧٨ هـ ويعتبر من الممهدين لخلع أخيه السعيد بركة خان .

٢ — أن أمراء مصر فى العصر المملوكى كان لهم أكبر الأثر فى توطيد عروش السلاطين أو تقويضها ، بما كان لهم من شدة البأس وقوة الشكيمة والعناد والقدرة على إثارة الدسائس لمن لا يردعهم ويوقرهم ويرعى حرمتهم من سلاطين مصر . فإن مقتل قطز وعزل بركة خان وسلامش ابنى الظاهر بيبرس تم على يد أمراء مصر [٢] .

ولم يكن تأييد الشعب للسلطان كفيلا بتثبيت عرشه فإن عزل الناصر كان يتم على يد أمراء الدولة الأقوياء مع وضوح حقه فى العرش ، فدفعه ذلك فى سلطنته الثالثة إلى استرضائهم وأخذ من يشك فى أمره منهم بالشدة صيانة لعرشـــه من الزوال وحفظاً لكيان ملكه من التصدع والانهيار .

ويمكن القول بوجه عام أن الناصر كان محبوباً من الشعب وأنه كان فى الوقت نفسه مؤيداً من جانب فريق من الأمراء . وهذان العاملان كانا من عوامل انتصاره على مغتصبى ملكه وتقويض عروشهم . فإن الامراء الذين اغتصبوا عروش أســـلافه من سلاطين المماليك أمثال بيبرس وقلاوون لم يمكّنوا السلاطين المعزولين من العودة الى

(١) راجع فى هذا الصدد : العينى : عقد الجمان (مخطوط) جـ ٣ القسم الأول ص ٤٩ . المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٧٢ .

Lane—Poole : The Art of the Saracens, pp. 17—18.

(٢) يلزم هنا أن نشير إلى الوصية التى أرسلها السلطان بيبرس إلى ابنه بركه خان من دمشق عنـد ما أحس بدنو أجله ومنها نعلم أن بيبرس لم يكن يأمن على نفسه وعلى ابنه من غدر أمراء مصر وأنه كان يعلم مدى قدرتهم على الدس وإثارة الفتن : « إنك صبى ، وهؤلاء الأمراء يرونك بعين الصبى ، فمن بلغك عنه ما يشوش عليك ملكك وتحققت ذلك عنه ، فاضرب عنقه فى وقته ولا تعتقه ولا تستشر أحداً فى ذلك ، وافعل ما أمرتك به وإلا ضاعت مصلحتك » (ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ص ٤٤٠) .

عروشهم . ولذلك يكون ذلك الحب المتبادل بين الناصر وبين شعبه عاملا مهماً فى استقرار سلطنته الثالثة ، مع ملاحظة أنه لولا تأييد عدد من الأمراء له إذ ذاك لما تمكن بمساعدة الشعب وحده من العودة إلى عرشه (١) لأنه لم يكن للرأى العام المصرى أثر كبير فى سير الحوادث فى ذلك العصر .

ومن الأمور التى تسترعى النظر وتثبت حب الشعب المصرى للناصر محمد بوجه خاص وأسرة قلاوون بوجه عام ، أن أمراء مصر لما عادوا الناصر — على نحو ما درجوا عليه مع من سبقه من السلاطين — وحاصروه هم وإخوانهم فى القلعة بقصد التضييق عليه واضطراره إلى اعتزال العرش ، قام عامة الشعب بمظاهرة هائلة وتكاثر عددهم واجتمعوا أمام القلعة وعلا صياحهم وأعلنوا أنهم لا يريدون أن يلى المُلك أحد من غير بيت قلاوون . وكان من هتافات العامة العظيمة الدلالة ، هتافهم : « يا ناصر يا منصور »(٢). فتحرج الأمر واضطربت أحوال الأمراء وزاد هلعهم إذ لم يكونوا يتوقعون أن يصل حماس الشعب فى تأييد الناصر إلى هذا الحد ، خصوصاً وأنهم لم يتعودوا أن يروا للرأى العام أثراً إذا استقر رأى الشعب على أمر من الأمور . كذلك كان الأمراء كلما حاولوا التفاهم مع المتظاهرين من العامة علت هتافاتهم المدّوية : « يا ناصر يا منصور ! الله يخون الخائن ، الله يخون من يخون ابن قلاوون » .

٣ — أن الخلافة العباسية التى نقلها السلطان الظاهر بيبرس سنة ٦٥٩ (٦٦٠ هـ) بعد أن قضى عليها التتار من بغداد سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) ليجعل منها سنداً للسلطنة المملوكية ، جعلت مصر مقر الخلافة ، ومركز الرئاسة العامة على المسلمين ، وأظهرت سلاطين المماليك أمام العالم الاسلامى كأنهم حماة للخلافة ولأشخاص الخلفاء ، وأكسبت سلطنتهم شرعية ما كانت لتكسبها من أى مصدر آخر . ولكن على الرغم من ذلك فإن الخليفة العباسى فى القاهرة لم يكن إلا مظهراً خداعاً جهد المماليك لإيجاده ذراً للرماد فى العيون حتى يقضوا على شهرة الطامحين فى مُلك مصر ويبددوا السحب التى كانت تحوم حول مبلغ شرعية حكمهم للبلاد .

---

(١) راجع العينى : عقد الجمان (مخطوط) جـ ٢٣ الجزء الأول ص ١٥٢ ، والنجوم الزاهرة لأبى المحاسن جـ ٨ ص ١٦٦ — ١٧٦ .

(٢) النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ١٧٣ .

على أن الخليفة العباسى فى القاهرة قد أصبح ألعوبة فى أيدى السلطان يحركها كيفما شاء (١) . وبذا فَـقَـدَ على توالى السنين قيمته فى نظر الشعب باعتباره حامى الدين والمسئول الأول عن شرعية السلطنة المملوكية . حقيقة إن إحياء الخلافة العباسية بمصر أصبح أمراً واقعاً وأنه كان يصحب اعتلاء كل خليفة منصبه عدة مظاهر غاية فى الأبهة والعظمة : من فحص عن نسبه وتقليد السلطان له أمر الخلافة بالديار المصرية وتولية الخليفة للسلطان أمور البلاد فى حفل يجمع الأمراء والقضاة وكبار رجال الدولة ثم حمل ذلك التقليد على رأس الوزير فى موكب علنى يطوف أرجاء مدينة القاهرة مما يدل على تلهفه وابتهاجه بحصوله على مثل ذلك التقليد الذى يجعل سلطانه فى نظر الشعب شرعياً . ولكن كل ذلك لم يعد المظاهر التى لا تنطوى على أى نفوذ فعلى فى تصريف أمور الدولة أو التعرض لشئونها .

وكان جل عمل الخليفه العباسى فى القاهرة هو إعطاء السلطان تفويضاً بالحكم . إلا أن هيبة ذلك التفويض الشرعى بدأت تزول من نفوس المماليك بعد أن رأوا إقدام كبار الامراء على اغتصاب العرش كلما واتتهم الفرصة ، وذلك رغم حصول السلطان المخلوع على تفويض الخليفة . وعلى الرغم من أن الخليفة والقضاة الأربعة كانوا هم الذين يباركون السلطان عند اعتلائه العرش ، فإن ذلك لم يكن يتم إلا بعد أن يعلن أمراء مصر موافقتهم على اختياره وارتياحهم الى توليته وبعد أن يأخذ عليهم السلطان الجديد العهود والمواثيق بأن يخلصوا له ويلتفوا حول عرشه .

وعلى ذلك فإن موافقة الأمراء وتأييدهم كانت العامل الأساسى الذى يسهل للسلطان الوصول إلى العرش والاحتفاظ به مدة تطول أو تقصر تبعاً لذلك التأييد . أما مبايعة الخليفة للسلطان وحضور القضاة الأربعة عند تلاوة البيعة والشهادة على صدورها من الخليفة ، فقد كان أمراً صوريا لايقدم ولا يؤخر فى توطيد عرش السلطان أو زعزعته . ولكنه كان تقليداً اتبع منذ عهد بيبرس وعادة اصطلح عليها فى تلك الفترة من تاريخ مصر الاسلامية .

---

(١) راجع فى هذا الصدد أقوال :
Arnold : The Caliphate, p. 98—99.
Muir : The Caliphate, p. 593—594.

وعلى الرغم من أن السلطان منح الخليفة العباسى فى القاهرة : حق ذكر اسمه فى خطبة الجمعة، ونقشه على السكة إلى جانب اسم السلطان[١]، وإعطاء السلطان تفويضاً يجعل حكمه فى نظر الشعب شرعياً[٢] : فإن ذكر اسم الخليفة مع السلطان فى الخطبة على المنابر كان مقيداً ، وأن ظهور اسم الخليفة على السكة بجانب اسم السلطان كان أمراً صورياً محضاً ، وأن منح الخليفة عهود التفويض للسلطان لم يمنع وقوع حوادث الاغتصاب المتكررة فى عصر دولة المماليك البحرية[٣].

أما عن أساليب عزل سلاطين المماليك فيجب أن نبين أن ذلك كان يتم إما عن طريق النفى ، أو القتل ، أو تدبير الأتابك :

٤ — كان مصير بعض سلاطين المماليك الخلع ثم النفى . وكان نفيهم فى العادة إلى قوص أعظم مدن الوجه القبلى إذ ذاك ، أو إلى الكرك بالشام ، وأحياناً يقيم بعضهم بقلعة الجبل على أن يمنع من الاتصال بالناس .

على أن نفى أولاد السلاطين إلى الكرك بالشام ، كان أهم ما يتميز به عصر السلطنة المملوكية بالديار المصرية . وإليها رحل السلطان السعيد بركة خان بن بيبرس فى أواخر ربيع الأول سنة ٦٧٨ هـ ، والسلطان العادل بدر الدين سلامش بن بيبرس سنة ٦٧٩ هـ ، والسلطان الناصر محمد فى سنتى ٦٩٤ هـ و٧٠٨ هـ .

إلا أن السلطان كتبغا بعد فراره أثناء عودته من دمشق قاصداً الديار المصرية وزجوعه إلى الشام ، بعد أن تحقق أن الأمير لاجين يريد الغدر به كى يصل إلى السلطنة طلب من لاجين بعد أن وصل إلى عرش مصر مكاناً يقيم فيه بقية حياته ، فقبل السلطان الجديد أن يتوجه السلطان المخلوع إلى مدينة صرخد بالشام ، فذهب إليها معززاً

(١) لم ينفذ قط فى دولة المماليك فى مصر مسألة ذكر اسم الخليفة فى الخطبة ونقشه على السكة إلا أنه ثبت أن اسم الخليفة المستكفى بالله نقش سنة ٧٢٦ هـ (١٣٢٥ م) فى دلهى بأمر حاكمها ابن طغلق . انظر :

Nelson Wright : The Coins and Metrology of the Sultans of Delhi, pp. 168—179.

(٢) نفذ ذلك الشرط ولكنه فقد قيمته بتوالى حوادث الاغتصاب من السلاطين المفوضين من الخليفة شرعيا .

(٣) مثل اغتصاب الأمير قلاوون عرش سلامش بن بيبرس واغتصاب كل من كتبغا ولاجين عرش الناصر محمد .

مكرماً ، ومعه أولاده ومماليكه وغلمانه وأقام بها ، وظل فيها حتى توفى ١٠ ذى الحجة سنة ٧٠٢ هـ (١٣٠٢ م) (١) .

وهذه ظاهرة خطيرة أن يصبح السلطان السابق واليا على بلدة من أعمال دمشق . وهو أول مثل ينزل فيه سلطان فى دولة المماليك إلى أمير . وتتابعت حوادث نزول السلاطين عن عروشهم ، إلا أنهم كانوا إما يعزلون أو يقتلون أو يعتزلون فى مكان أو يقبض عليهم كأولاد الناصر .

٥ — وانتهت حياة بعض السلاطين بالقتل أمثال المظفر قطز (٦٥٧ — ٦٥٨ هـ) الذى قتله بيبرس ، والأشرف خليل (٦٨٩—٦٩٣ هـ) الذى قتله بدر الدين بيدرا ، وحسام الدين لاجين (٦٩٦ — ٦٩٨ هـ) الذى قتله كل من طغجى وكُرجى . وكان الاعتقاد السائد أن قاتل السلطان يجب أن يخلفه على العرش : فإن بيبرس حين سأله الأمير فارس الدين أقطاى نائب السلطنة مع بقية الأمراء عمن قتل قطز قال : « أنا قتلته » ، ورد أقطاى فى بساطة تستدعى الدهشة : « يا خوند ! اجلس فى مرتبة السلطان مكانه » (٢) .

ولما قتل السلطان خليل فى الحمامات بمديرية البحيرة اتفق الأمراء قبل أن يبرحوا مكان الجريمة على تولية قاتله بيدرا العرش ، على نحو ما فعله الأمراء حين تشاوروا فى الصالحية بعد قتل قطز . وبعد أن تم لكل من الأميرين طغجى وكرجى قتل السلطان لاجين بينما كان جالساً فى قصره يلعب الشطرنج ، عقدا بعد مقتله بيومين اجتماعاً حضره الأمراء وقام كرجى وقال : « يا أمراء ! أنا الذى قتلت السلطان ، والملك الناصر صغير ما يصلح ، ولا يكون السلطان إلا هذا — وأشار لطغجى — وأنا نائبه (٣) » .

وهنا لا تتم المشابهة بين الظاهر بيبرس وبين بيدرا وكل من طغجى وكرجى . فبينما نجد أن بيبرس قد قتل قطز وتمكن من الوصول إلى عرش السلطنة وتطول مدة سلطنته حتى يتمكن من أن يعهد بالملك لأولاده من بعده ومن تثبيت دعائم عرشه وينسى

---

(١) أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر جـ ٤ ص ٣٤ .
(١) ابن اياس : بدائع الزهور جـ ١ ص ٩٧ .
(٣) المقريزى : كتاب السلوك جـ ١ ص ٨٦٦ .

التاريخ فعلته لما كان عليه من حميد الصفات وما أتاه لخير مصر من جليل الأعمال ، نجد أن كلا من بيدرا وطغجي وكرجي لا يستطيعون الوصول إلى شيء من ذلك كله ، وسرعان ما انهارت آمالهم وتفرق عنهم أتباعهم وقتلوا شر قتلة .

ومن ذلك نرى أن بيبرس تولى العرش بموافقة تامة ولم تقم فى وجهه أى معارضة قوية من جانب الأمراء ، اللهم جانب الأمير علم الدين سنجر نائب دمشق . ونرى أيضاً أنه لم يكن من الضرورى أن يصل قاتل السلطان إلى العرش ، فإن بيدرا قاتل السلطان خليل بعد أن بايعه بعض الأمراء بالسلطنة تبعه الآخرون وذبحوه وقدموا العرش للناصر محمد أخي السلطان خليل . كذلك لم يتمكن كل من الأميرين طغجي وكرجي قاتلى السلطان لاجين من الوصول إلى العرش . ولعل عدم وصول قتلة الأشرف خليل والمنصور لاجين إلى السلطنة ، ترجع إلى أن السلاطين من بيت قلاوون كانوا محبوبين من الشعب . واستقر الرأى فى الحالتين على إسناد العرش إلى الناصر محمد .

٦ — وقام الأتابكة بأدوار هامة فى سلطنة المماليك : فقد عُزل السلطان علىّ بن أيبك على يد أتابكه الأمير سيف الدين قطز ، وعُزل السلطان سلامش بن بيبرس على يد أتابكه الأمير سيف الدين قلاوون . وفى كلتا الحالتين اعتلى كل من قطز وقلاوون عرش مصر . كذلك اغتصب الأمير زين الدين كتبغا عرش الناصر محمد . ولم يكن لهؤلاء الأتابكة أى حق شرعى فى الملك ، اللهم ما كانوا ينتحلونه من الأعذار من اضطراب أحوال البلاد الداخلية بسبب صغر سن هؤلاء السلاطين .

ومما يجب الإشارة إليه هنا أنه لا يصح أن يفهم من ذلك أن الأتابك هو الوصى على العرش بل كان كبير القواد فى الدولة وأنه كان يوجد حتى إذا كان السلطان غير قاصر .

كذلك يجب أن يلاحظ أنه فى عهد سلطنة أولاد الناصر وأحفاده لم يفكر أحد الأتابكة فى العرش ، فقد قنعوا إذ ذاك بخلع السلطان والحجر عليه أو تدبير أمر قتله ، وذلك فى الوقت الذى كانوا يرغبون فيه فى التخلص من السلطان ، ثم يعمدون إلى تولية أحد إخوته مكانه . وكان من الغريب حقاً عدم وصول أحد الأتابكة إلى عرش السلطنة فى تلك الفترة التى اعتلى فيها العرش سلاطين لم يبلغوا سن الرشد . على أنه يظهر أن

فكرة وصول الأتابكة إلى العرش فى عصر سلطنة أولاد الناصر وأحفاده قد جالت فى أذهان بعضهم ولكنها لم تستمر طويلا ، وسرعان ما اختفت لخوف هؤلاء الأتابكة من عدم تأييد الأمراء لهم فى تنفيذ فكرتهم ، لمّا كان بينهم من عوامل الحقد والتنافس على السلطة والنفوذ . فلم يكونوا يرضون أن يسودهم أحدهم ، خوفا من أن يستبد بهم ، بل كانوا يفضلون كثيراً أن يكون سلطانهم ممن لا شخصية له ولا إرادة حتى يتمكنوا من أن يصلوا فى عهده إلى تحقيق كل أمانيهم . وهذه الصفات التى تطلبوها فى السلطان قد توافرت فى أولاد الناصر .

ولكن بتعيين برقوق سنة ٧٨٣ ﻫ أتابكا للسلطان الملك الصالح زين الدين حاجى (٧٨٣—٧٨٤ ﻫ = ١٣٨١—١٣٢٨ م) حفيد الناصر محمد يعود عهد طموح الأتابكة إلى عرش السلطنة . وذلك علىٰ نحو ما كان متبعاً منذ قيام دولة المماليك حتى وفاة السلطان الناصر محمد . فقد عمل برقوق منذ أن أصبح أتابكا على اعتلاء العرش ولم يمنعه من تنفيذ ذلك إلا خوفه من عدم تأييد الأمراء . ولما اطمأن إلى زوال ما كان يخشاه خلع الملك الصالح حاجى من السلطنة وجلس مكانه على العرش .

أما عن مركز سلاطين المماليك فنقول :

٧ — إن مصر وصلت فى عصر المماليك عامة وعهد الناصر خاصة إلى مركز ممتاز بين دول العالم الهامة الشرقية والغربية حتى أصبح بلاطها مقصد سفراء الدول الاوروبية الذين وفدوا إلى مصر حاملين إلى سلطانها الهدايا والرسائل من ملوكهم يطلبون إليه فيها حسن معاملة المسيحيين ويعبرون عن تقديرهم اسلطان مصر واعترافهم باتساع نفوذه ويؤكدون حبهم وإخلاصهم له .

ويتبين من دراسة سفارات الدول المختلفة إلى بلاط الناصر أنه نشأت بينه وبين مغول فارس والهند والقفجاق علاقات عدائية أو ودية (١) ، وأنه أخضع أرمينيه

---

(١) المقريزى : كتاب السلوك جـ ١ ص ٩٢٧ — ٩٤٩ . أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ١٦٥—١٦٨ .

Browne : Literary Hist. of Persia, Vol. 1, p 367 ; Vol. 2, p. 446 ; Vol. 3, pp. 18—20.

وراجع فى هـذا الصدد الفصل الذى كتبه الدكتور عزيز سوريال عطيه بعنوان **Europe and the Tatars** فى كتابه **The Crusade in the Later Middle Ages, pp. 233—259** =

لسلطانه(١)، وبسط نفوذه على بلاد اليمن(٢) والحجاز(٣)، ووسّع ملكه فى أفريقيه(٤).

وظهرت فى بلاط الناصر بعوث من القبيلة الذهبية، وإيلخانات المغول فى فارس، ومن بنى رسول فى اليمن، ومن نجاشى الحبشة، ومن قِبَل الحفصيين فى تونس، وامبراطور بيزنطة، وقيصر بلغاريا، ومن البابا، وملك أرغونه، وفيليب الرابع ملك فرنسا، ومحمد بن طُغْلُق سلطان دهلى(٥). وهذا أقصى ما يمكن أن تطمح اليه أمة من مكانة سامية بين الدول.

٨ — أن سلطان المماليك كان يتقلب بجملة ألقاب: فكان بيبرس يتلقب بلقب «قسيم أمير المؤمنين»(٦) و«زعيم أمراء المماليك»(٧)، وكان الناصر يتلقب «بالسلطان الملك الناصر، السيد العالم العادل، المظفر المنصور، ناصر الدنيا والدين، سلطان

Allan : The Cambridge Shorter History of India, pp. 226—236.

Howorth : History of the Mongols, part III, pp. 426—427.

(١) ابو الفداء: المختصر فى أخبار البشر جـ ٤ ص ٥٣—٥٤. ابن خلدون: العبر جـ٥ ص ٤٢٠ — ٤٣٠. المقريزى: السلوك جـ٢ ص ١٤٢—١٤٤.

Camb. Med. History, Vol. 4, p. 180.

(٢) القلقشندى: صبح الأعشى جـ ٦ ص ٤٢١—٤٢٦. Enc. Isl. art Al—Nasir.

(٣) العمرى: التعريف بالمصطلح الشريف ص ١٨٤.

Van Berchem : Corpus, Egypte, I. pp. 127, 497.

Arnold : The Caliphate, p. 100.

(٤) أبو الفداء: المختصر فى أخبار البشر جـ ٣ ص ٥٣. المقريزى: كتاب السلوك جـ٢ ص ١٦١

Enc. Isl. art. Al Nasir.

Weil : Geschichte der Abbasiden Chalifats. I. pp. 337 et Seq.

(٥) المقريزى: كتاب السلوك جـ ٢ ص ١٦٣ — ١٦٤، ٢٥٩. أبو المحاسن. المنهل الصافى (مخطوط) جـ ٣ ص ٢٦٠—٢٥٢.

(٦) تلقب بيبرس بهذا اللقب حين وفد عليه بمصر الإمام المستنصر بالله أحمد فى رجب سنة ٦٥٩هـ فبايع السلطان ولقبه «قسيم أمير المؤمنين». وجاء ذكر هذا اللقب أيضا عندما بويع بيبرس سنة ٦٦١هـ من الخليفة العباسى الحاكم بأمر الله. راجع كتاب السلوك جـ ١ ص ٤٤٧.

(٧) وهذا الوصف «زعيم أمراء المماليك» premier des emirs يشبه ما كان حادثا فى أوروبا فى أوائل العصور الوسطى ببعض الممالك حيث كانت الملكية انتخابية، فاعتبر الملك أول أقرانه من بين أمراء الدولة primus inter pares.

الإسلام والمسلمين ، محيي العدل فى العالمين ، منصف المظلومين من الظالمين ، وارث الملك ، سلطان العرب والعجم والترك ، اسكندر الزمان ، صاحب القبلتين ، خادم الحرمين الشريفين ، سيد الملوك والسلاطين »[١] .

ولا شك أن هذا يبين مدى ما بلغه السلاطين من القوة والعظمة ، خصوصا إذا علمنا أن تلك الألقاب لم تكتمل لهم عفواً ، وإنما اتخذوها إثر حوادث وظروف معينة . وقد دوّنت تلك الالقاب وأمثالها فى الرسائل التى تبودلت بين السلاطين وبين ملوك أوربا[٢] ، وفى الكتابات التاريخية ، وعلى السكة ، والعمائر ، والتحف الفنية ، وفهارس دار الآثار العربية وغيرها .

أما عن الحكومة المصرية فى سلطنة المماليك فنلاحظ :

٩ — أن اختيار موظفى البلاط السلطانى الذين كان يعهد اليهم بأمر إدارة البيوت أو الإدارات السلطانية العديدة تطلب كياسة ومرونة من جانب السلطان ، لأنه كان ملزماً بأن يعمل على إرضاء أتباعه الكثيرين . لذلك اتبع سياسة الإكثار من عدد الموظفين فى القصر فأدى ذلك إلى تخفيف حدة الأحقاد فى نفوس كبار المماليك على السلطة والنفوذ ، وإلى إكساب بلاط السلاطين رونقاً وبهاءً وعظمة أكثر مما كانت عليه الحال قبل وصول المماليك الى عرش السلطنة .

وكانت اختصاصات بعض الموظفين مشتركة : كما كان يحدث بين القاضى ، ووالى

---

(١) وردت هذه الألقاب كاملة فى كتاب الناصر بتاريخ ٢٠ أغسطس سنة ١٣٢٧ م (٧٢٨ م) رداً على رسالة يعقوب ملك أرغونه . انظر .Atiya : Egypt and Aragon, pp. 57—69

وراجع أيضاً : القلقشندى : صبح الأعشى ج ١٠ ص ٥٩ .

و Zettersteen تاريخ سلاطين المماليك ص ٢٥ ، ٥٣ .

Van Berchem : Corpus, Egypte I, pp. 152—155, 167—160.

Mayer : Saracenic Heraldry. pp. 163—164.

ويوجد فى دار الآثار العربية كرسى من النحاس على شكل منشور ذى ستة أضلاع ، مطعم بالذهب والفضة ومخرم . وسطحه وجوانبه مزينة بالزخارف الهندسية والنباتية والخطية وفيه صور بط يطير . وجد فى مارستان السلطان الناصر محمد وعليه ألقاب هذا السلطان واسم صانعه محمد بن سنقر البغدادى وتاريخ عمله ٧٢٨ هـ .

(٢) راجع Atiya : Egypt and Aragon

القاهرة ، والمحتسب . كذلك كانت سلطة الوظائف تتوقف إلى حد كبير على شخصية شاغليها فقد كان يقوى نفوذ بعض الموظفين وتظهر مواهبهم فيطغون على اختصاص غيرهم ، كما أن السلطان كان يعمل على إلغاء بعض الوظائف إذا لم يرضَ عن أصحابها ويعمد إلى إنشاء وظائف أخرى إذا أثبت أصحاب الوظائف الملغاة عجزاً عن القيام بأعبائها من جهة واستقلالا فى الرأى من جهة أخرى، كما حدث حين ألغى الناصر محمد سنة ٧٢٧ هـ منصبى الوزارة ونيابة السلطنة واستعاض عنهما بوظيفة ناظر الخاص .

ومثل هذا الاضطراب فى الوظائف واختصاصها أمر غير مستغرب فى بيئة لم تكن النظم الإدارية فيها قد وضعت على أسس وقوانين مستقرة تمام الاستقرار . وبفضل ماجاء فى المصادر العربية ، وما ورد فى الكتابات التاريخية (١) أمكن تعرُّف الألقاب الكثيرة التى تشهد بتعدد الوظائف الإدارية فى مصر فى عصر المماليك وجنسية الأشخاص الذين كان يُختار منهم موظفو الدواوين كديوان الإنشاء والخاص والأحباس والنظر ، كما أمكن تعرف قواعد الترقى والتأديب بين الموظفين .

١٠ — أن سلاطين المماليك الأقوياء أمثال بيبرس وقلاوون والناصر محمد لم يعهدوا — على ما عرف عن بعض السلاطين الضعفاء — فى الإشراف على شئون الدولة إلى كبار الأمراء بل كانوا يباشرون هذه الشئون بأنفسهم لأن كلا منهم كان يعتبر : رئيس الدولة الأعلى ، والمهيمن على شئون الأمراء الخاصة والعامة ، وصاحب الحق فى تدرجهم فى مراتب الرقى (٢) ، وتوزيع الإقطاعات على الأمراء والجنود وتحديد أنصبتهم فيها (٣) ،

(١) Van Berchem : Corpus, Egypte, I, pp. 227—228.
Hautecoeur et Wiet : Les Mosquées du Caire, p. 57.

(٢) راجع : القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ص ١٥ . المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٢١٥ . الخالدى : المقصد الرفيع المنشا ص ١٢٣ .
Poliak : Feudalism in the Near East, p. 3.
Demombynes : la Syrie, p. XXXVII.
حيث تجد تفصيلات عن تدرج الأمراء بأمر السلطان من أمير خمسة إلى أمير عشرة إلى أمير أربعين إلى أمير مئين .

(٣) انظر موقف السلطان لاچين والسلطان الناصر من الأمراء والأجناد حين راكا البلاد فى سنتى ٦٩٦ هـ ، ٧١٥ هـ . راجع :
المقريزى . الخطط جـ ١ ص ٨٨ — ٩١ . وكتاب السلوك جـ ١ ص ٨٤٢ — ٨٤٦ .

وتعيين كبار موظفى الدولة وعزلهم وتأديبهم ، والنظر فى المظالم [١] ، وقيادة الجيوش التى طالما خاضوا بها غمار الحروب بأنفسهم . على أنهم رغم هذا لم يكونوا مطلقى التصرف ، فإنهم كانوا إذا أرادوا البت فى مشروع من مشروعات الدولة الحيوية أو إعلان حرب أو إبرام صلح عقدوا « مجلس السلطنة » من كبار الموظفين للاستئناس بآرائهم قبل أن يقدموا على تنفيذ مشروعاتهم وخططهم [٢] .

١١ — أن اضطراب أحوال مصر وكثرة الفتن والثورات فى عهد كثير من سلاطين المماليك ، كان يرجع إلى عدم استقرار الأحوال الاقتصادية فى البلاد . إلا أن السلطان الناصر قد أدرك هذا فى سلطنته الثالثة ، فعمل على تلافى ذلك بأن نظم كل ما يتصل بالحالة المالية والاقتصادية تنظيما كفل للبلاد حياة مستقرة .

ويتضح لنا مدى هذا الاستقرار من حرصه على إرضاء الأمراء والجند بتحديد أنصبتهم فى أرض مصر فى الروك [٣] الذى أمر باجرائه سنة ٧١٥ هـ وعرف فى تاريخ دولة المماليك باسم « الروك الناصرى » نسبة إليه ، ومن ندرة المجاعات فى عصر الناصر [٤] ، ومن تلك الأموال الوفيرة التى كانت تدفع منها أرزاق موظفى الدولة وتوزع منها العطايا والمنح على الأدباء وينفق منها على وجوه الإصلاح التى كانت من أهم مظاهر عصر الناصر من كرى الانهار ، وشق الترع ، وبناء المساجد ، والمدارس ، والمنشئات الخيرية حتى تميز ذلك العصر بتلك المبانى الخالدة من قصور منيعة وقلاع شامخة ومساجد ضخمة تشهد لعصره بالقوة والثروة والجاه ، حتى يمكن القول إن الناصر كان أعظم سلاطين المماليك شغفاً بالبناء والتشييد . وإن تلك الثروة الطائلة التى تجمعت فى خزانة المماليك ساعدتهم على توجيه عنايتهم إلى الجيش . وكان لنشأة المماليك الحربية أثر بالغ فى

= ابن الجيعان : التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية ويعد أوفى مصدر فى موضوع الروك الناصرى .
Enc. Isl. art. Egypt.
Michel : L' organisation Financière de L'Egypte p. 142.
Poliak : Feudalism in the Near East, pp. 23—28.

(١) انظر هيئة السلطان عند النظر فى المظالم بدار العدل فى المقريزى . الخطط جـ ٢ ص ٢٠٦ — ٢٠٩ .

(٢) Zetterstéen ، تاريخ سلاطين المماليك ص ١٤٦ .

(٣) الروك : مسح أرض الزراعة فى بلد من البلاد لتقدير الخراج المستحق عليها لبيت المال

(٤) اقرأ كتاب « إغاثة الأمة بكشف الغمة » للمقريزى الذى نشره الدكتور زيادة .

تأسيس جيش ثابت منظم . فقد اهتم السلاطين بتدريب الجيوش المملوكية وتزويدها بالمعدات الحربية على اختلافها والعناية بصناعة السفن الحربية حتى أصبح للأسطول المصرى فى عهد بيبرس شأن عظيم .

***

هذه هى أهم النتائج التى يمكن الوصول إليها من دراسة عصر المماليك ، الذى أصبحت مصر فيه امبراطورية شاسعة الأرجاء ، مترامية الأطراف ، وغدت القاهرة مركز الزراعة والصناعة والتجارة ، وقبلة الأنظار ، وكعبة القصاد .


Bibliotheca Alexandrina
0653137